٣ — الصاحبي

لقد وعدنا في مقالنا السابق أن نحاول تعليل اضطراب ابن فارس ، ذلك الاضطراب الذي وقعنا بسببه في شك وحيرة ، وأن نوازن بين آرائه المتباينة ، علّنا نلمح من خلال هذه الموازنة ما يهدينا الى الحكم الصحيح . وإنك لو حللت عبارته « ومعلوم ان حوادث العالم لا تنقضي الا بانقضائه ، ولا تزول الا بزواله » ووازنت بينها وبين ما سبقها من عبارات ، لسلّمت معنا بأنّا على حق في شكنا وحيرتنا ، وبأن الرجل قد يسلم ببعض الآراء المبتة ، من غير ان يسبر غورها بمسبار بحثه ، وتسليمه هذا هو الذي يضطرنا الى تمحيص وجهة نظره ، والى معرفة الاسباب التي حملتهُ على ان يتخذ من الادلة الضعيفة متكأً يستند اليه ، ويخيل اليَّ انهُ يريد التخلص من مسئولية لا قبل لهُ بمواجهتها والبحث فيها ، او كان هناك حق عليه ان يتحاشاهُ ، لأنهُ لا يقرب ولا يُجترأ عليه . اقول هذا لأنهُ بعد ان دلّل على حيرته المعهودة بقوله « وله لا ينظر الآخر مثل ما نظر الاول » سُقط في يده ، ورأى انهُ قد ضل ، وأخذ برأي — زعموا — انهُ وارد عن ابن عباس مع أنّا نعلم أن أغلب ما ينسب إليه مطعون في صحته [illegible] الزنادقة لما علموا دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهُ بأن يعلمهُ الله التأويل ، ويفقهه في الدين ، ورأوا حرص السلف الصالح من أجل ذلك على اتباع مذهبه ، كذبوا عليه ودسوا في اقواله من الخرافات والبدع ما لا يمكننا معرفته وتمييزه الا بعد مشقة وعناء ، ولهذا كان الامام ابن خلدون لا يسلم برأي من الآراء ولا بحديث من الاحاديث التي شك في صحتها الا بعد ان يجعل من الاسباب الطبيعية والاجتماعية هادياً يأخذ بهديه ، وكان ينبذ كل رأي لا يتفق مع هذه الاسباب ؛ ونجده سار على هذا النحو في المهديّ المنتظر ، فانهُ بعد ان ذكر جميع الاحاديث التي وردت فيه ، وبعد ان ناقش رواتها واستقصى اخبار الرواة وتبين لهُ ضعفهم ، عرض هذه الاحاديث على ما اتفق عليه الناس من نظم اجتماعية وسياسية ، فاذا بها تخالف هذه النظم التي هي سنة الله في خلقه ، واذا بها من وضع الشيعة الذين ارادوا ان يستحوذوا على عقول العامة والدهماء بأكاذيب كهذه ، علهم يجدون

من وراء ذلك ما يحفظ لهم اسباب عيشهم ، ويقذف في قلوب الخلق الرعب منهم

ونحن نعلم ان ابن فارس لم يشأ ان يحرك ساكناً امام الرأي الوارد عن ابن عباس، بل دلل على صحته بكل ما اوتي من قوة وزيّف كل رأي يخالفهُ. من ذلك انهُ قال :

« اقول : ان لغة العرب توقيف ، ودليل ذلك قول الله جل ثناؤه « وعلّم آدم الاسماء كلها » فكان ابن عباس يقول علمهُ الاسماء كلها وهي هذه التي يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الامم وغيرها ،وروى خصيف عن مجاهد قال : علمهُ اسم كل شيء ، وقال غيرها : انما علمهُ اسماء الملائكة ، وقال آخرون : علمهُ اسماء ذريته اجمعين . والذي نذهب اليه في ذلك ما ذكرناه عن ابن عباس

على انا لو اردنا ان نحذو حذو ابن خلدون في البحث ومحصنا رأي ابن عباس لتبين لنا انهُ مكذوب عليه ، وأنهُ يخالف العقل والواقع ، يدل على ذلك قوله : « وهي هذه التي يتعارفها الناس » والناس الذين يريدهم لا يعرفون غير العربية ، فكأن الله علم آدم الاسماء كلها باللغة العربية مع انها لهجة من لهجات السامية التي تنتسب الى سام ابن نوح ، ونوح هذا بعد آدم بزمن غير قليل ،اذن فلم يكن للعربية وجود في ايام آدم ولا يصدق ان يكون قد نطق بها ، ولو فرضنا ان الله علمهُ الاسماء كلها — باللغة العربية او بغير العربية — فان ذلك يكون من قبيل المعجزة والمعجزة امر خارق للعادة ينقضي بانقضاء سببه ويزول بزواله ،ومن المحال ان يعرف ابناؤه كل ما عرفهُ هو من اسماء كانت إعجازاً وتحدياً للملائكة ، بل يعرفون الضروري الذي يحتاجون اليه وتدعو اليه اسباب حياتهم ، على ان ابن فارس نفسهُ يعود فيهدم هذا الرأي الذي اخذ به ويدلل على عكس ما يريد من حيث لا يشعر ، الا تراه يقول : « ولعل ظاناً يظن ان اللغة التي دللنا على انها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفي زمان واحد . وليس الأمر كذا ، بل وقف الله جلّ وعزّ آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلّمهُ إياهُ مما احتاج إلى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله ، ثم علم بعد آدم عليه السلام من عرب الانبياء صلوات الله عليهم نبيًّا نبيًّا ما شاء أن يعلّمهُ » فكأنهُ سلّم معنا بأن آدم لم يعلّم الاسماء كلها دفعة واحدة ، وإنما علم منها ما احتاج اليه ، وهذا يناقض الرأي الذي اخذ به اولاً ، ويدل على اضطرابه وشكه

ولكن ما بالنا نعسف هذا التعسف في تفسير الآية ، ونحيد بها عن المعنى الذي تريدهُ ، مع ان سياقها يدل على أن الله جل شأنهُ أراد أن يضرب المثل ، ويبين لنا أن سكنى الأرض وعمرانها لا يناسب الملائكة ولا يتفق مع استعدادهم الخلقي ، وإنما يناسب آدم الذي خلق من اجزاء مختلفة وقوى متباينة تجعلهُ قادراً على الإدراك والنطق ،

وتربيتهُ لأن يعمر الأرض ويدبر شؤونها ، ويعرف ما يحيط بها من أفلاك ، ومما حوته من غرائب وبدائع ، فعليه والحالة هذه أن يكد ويكدح ، وان يستعمل مواهبه فيما خلقت لهُ، وهذا لا ينافي ما ذهب اليه العلماء القائلون بأن اللغة وضع واصلاح ، بل يتفق مع أحدث آرائهم وأصحها

اضطراب ابن فارس

أظنك يا سيدي القارئ لم تنسَ قول ابن فارس عند تدليله على توقيف اللغة « وحجة اخرى أنهُ لم يبلغنا أن قوماً من العرب في زمان يقارب زماننا أجمعوا على تسمية شيء من الاشياء مصطلحين عليه ، فكنا نستدل بذلك على اصطلاح كان قبلهم » إنك لو وازنت بين قوله هذا وبين آرائه الاخرى التي سنذكرها بعد للمست اضطرابه بيدك ولعلمت ان الرجل يتناقض لامر في نفسه قد نهتدي اليه او نهتدي إلى ما هو قريب منهُ

قال في باب الاسماء الاسلامية : كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات ، وأبطلت امور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر ، بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت . فعفى الآخرُ الاولَ ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الامان والإيمان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الاسلام والمسلم ،إنما عرفت منهُ إسلام الشيء ، ثم جاء الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والستر ، فاما المنافق فاسم جاء به الاسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان في الاصل من نافقاء اليربوع . ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم « فسقت الرطبة » اذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بان الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه — إلى أن قال في باب آخر « قد كانت حدثت في صدر الاسلام اسماء وذلك قولهم لمن أدرك الاسلام من اهل الجاهلية مخضرم »

فها نحن يا سيدي نجده يؤمن بأن هناك ألفاظاً استحدثت واجماعاً على تسمية أشياء لم تكن من قبل . فلماذا ياترى يعترف هنا وينكر هناك ? امل للرجل عذراً ونحن نلوم ، أو لعله يعتقد بأن الدين يحرم معارضة السابقين وينهى عنها، مع انهُ في رسالته المعروفة دعا إلى البحث وتمرد على التقليد ولم يشأ ان يكون ذلك الرجل الجامد الذي يتخذ من الخرافة حجة ويسلم بالامور على علاتها

ابن فارس ونشأة الخط

على ان جمود ابن فارس في نشأة الخط لم يكن بأقل من جموده في نشأة اللغة . وكأنهُ لما رأى أن لابن عباس رضي الله عنهُ رأياً في هذا الموضوع أيضاً ، أراد ان يكون محافظاً ومغرقاً في محافظته حتى لايقال أنهُ خالف ابن عباس المشهود له بالتأويل وحسن الاستنباط ، ويعلم الله ان هذه الآراء كلها موضوعة ومنحولة ، ويخيل اليَّ — وأنا اتكلم عن ابن فارس — أني أتكلم عن شخصين متباينين لاصلة بينهما في الرأي والمذهب ، مع اني أناقش رجلاً واحداً وأبحث في اقوال رجل واحد . افلا تراه بعد حريته التي عرفتها يقول — كما قال في نشأة اللغة — بأن الخط توقيف ، وأنت تعلم ان في هذا من الخطل ما فيه ، لان سنة الخليقة توجب غير ذلك وتدلنا على أن الخط نشأ كاللغة بالوضع والاصطلاح ، وأن الانسان اهتدى اليه عند ما كثر وتآلف ، واتسعت علاقاته ، وزادت حاجاته ، واضطر إلى تدوين ما يمر عليه من حوادث ، ومخاطبة من نأى عنهُ ، وإثبات ما يخلفهُ من آثار

ولقد بحث العلماء كثيراً في كيفية ابتداعه ، وتطور نشأته ، وتضاربت في ذلك آراؤهم وتباينت مذاهبهم . ثم اتفقوا في النهاية على أن الانسان الاول كان لا يجد وسيلة يثبت بها مايمر عليه من حوادث ، غير التصوير بالرسم أو بالنقش ، وتلك هي الطريقة الطبيعية التي يمكن أن يستخدمها وهو في جهالته الاولى ، وإلا فماذا يفعل إذا رأى ماموثاً يفتك بصائديه أو غزالاً ينجو من مطارديه وأراد تدوين ذلك وإثباته ! إنهُ لايفعل غير ما بيناه ، ولا يجد له حيلة غير ذلك

العلماء [illegible] الدور الصوري المادي)

ويقولون [illegible] نفسه من معان كالحب والبغض مثلاً ، اضطر الى الرموز فرمز الى القوة بالاسد والى المحبة بالحمامة والى البغض بالعقرب ، ويسمون هذا الدور (الدور الصوري الرمزي) ، ثم انتقل الى الدور الثالث وهو (الدور المقطعي) وانما جاء ذلك بعد أن اضطر الى الاقتصاد واهتدى الى اتخاذ صورة الشيء للدلالة على اول مقطع من اسمه ، ثم ما لبث ان نوّع والتمس السرعة فاخترع الحركات التي اصبحت بها تلك المقاطع حروفاً مستقلة ، وهذا هو الدور الاخير الذي يعرف (بالدور الهجائي)

ولو تتبعنا سلسلة الخط العربي لتبين لنا ان هذه السلسلة تنتهي عن الخط المصري القديم ، ذلك لان الخط العربي اشتق من الخطين السرياني والنبطي ، المشتقين من الخط الآرامي ، الذي اشتق من الخط الفينيقي ، والخط الفينيقي مشتق من الخط المصري القديم (الهيروغليفي) ، ولو امعنا النظر في هذه الخطوط لظهر لنا جليًّا اشتقاق بعض حروفها

من بعض ، ولوجدنا ان الخط الهيروغليفي الذي هو أصلها يمت بصلة الى الكتابة وهي في أبسط احوالها ، وتكوينه من صور يدل بعضها على معانٍ ذاتية وبعضها على معانٍ رمزية يشهد بأنهُ يمثل حال انتقال الكتابة بين الدور الصوَري الرمزي إلى الدور المقطعي ، ويؤيد ما ذهب اليهِ العلماء واتفقوا عليهِ

نظرية التوقيف

واريد — بعد ان بثثت لسيدي القارىء — باختصار — ما اجمع عليهِ الباحثون في نشأة الخط — ان اذكر رأي ابن فارس حتى لا يؤاخذنا اذا ناقشناه وزيفناه

رأي ابن فارس : « والذي نقول فيه : ان الخط توقيف ، وذلك لظاهر قول الله عز وجل « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » وقال جل ثناؤه « والقلم وما يسطرون » وإذا كان كذا فليس يبعد أن يوقف آدم عليهِ السلام على الكتاب

فاما ان يكون مخترع اخترعهُ من تلقاء نفسه فشيء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح.

ولا ادري كيف جعل ابن فارس الآيتين دليلاً على صحة رأيه ، مع انهما لا يشيران إلى شيء مما ذهب اليهِ ، ولا يدلان إلا على اهمية الكتابة وتعظيم شأن القلم ، وحاش أن يعلم الله بالقلم التعليم المعهود ، أو أن ينام الانسان ويستيقظ فيجد نفسهُ كاتباً قارئاً . ويجب ألاّ ننسى أن المراد بالتعليم في الآية الاولى ، هو استعداد الانسان للقدرة على الكتابة وتمكنه من معرفتها إذا هو حاول ذلك

التمهيد

والآن بعد أن ناقشت الرجل وقسوت عليهِ ، وبعد ان بثثت للقارىء آراءه — سواء الحر منها والجامد — وقد بسطها في كتابه الذي الفه ليوضع في خزانة تلميذه الصاحب ابن عباد ونسبه اليهِ، أريد أن أضع أمامي صورة موجزة لأحوال عصره ، لأتمكن بها من معرفة العوامل التي كان لها أثر في اضطرابه ، على أني سأقف بعيداً عن هذه الصورة حتى يتبين لي ما فيها من كليّات ، وما عليهِ اهل العصر من نظم اجتماعية وسياسية ، ذلك لأن الانسان ثمرة من ثمرات بيئته ، وان شئت التدقيق فقل : هو نتيجة للتفاعل الحاصل بين بيئته وعصره ، هذه قاعدة مضطردة ومسلّم بها . ولن يعترض عليها بهؤلاء النوابغ الذين خرجوا وشذوا عن المألوف ، لأننا لو حللناهم ودرسنا كل شيء يتعلق بهم ، لوجدنا أن البيئة والعصر اثرهما في تكوين استعدادهما ، وأن هنالك تمهيداً — محسوساً أو غير محسوس — لهذا النبوغ

خذ مثلاً فيكتور هوجو شاعر فرنسا الخالد ، فانك ستجده اول من خرج على الطريقة المدرسية ، وأول من سار وراء ذوقه وإحساسه في نظمه ونثره ، وستجده احيا بذلك الطريقة الرومانطيقية وكشف اساسها وبين مزاياها وجعل لها المقام الاول في صناعة الادب ، ولكن لم يكن ذلك منهُ على سبيل الطفرة — فالطفرة محالة — وإنما مهد لهُ سبيلها من كانوا قبله من الادباء ، كشكسبير وغوتيه وشاتو بريان ؛ وهذا الاخير هو الذي اقتدى به هوجو وقال فيه (إما أن أكون شاتو بريان أو لا شيء)

وكان للبيئة ايضاً اثرها في إمامة هوجو لهذه الطريقة ، فان النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر كانت تائقة لحصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة ، وكان الادباء يترقبون ظهور من يقدر على هدم الطريقة القديمة ، وتخليص الادب من استعاراتها وكناياتها وتمنوا القضاء على كل ما يقيد حرية الشاعر والكاتب ، كما قضوا من قبل على الاستبداد وطردوا حماتهُ . فظهر هوجو وبه سادت الطريقة الرومانطيقية وانتشرت ، وعندي انهُ لولا نفيه وتشريده وغضب الملك عليه ، لكان لهُ في الادب مذهب آخر غير الذي عرفناه ولتقلد زعامة هذه الطريقة اديب سواه

ثم نرجع إلى ابن فارس فنجده من علماء القرن الرابع الهجري ، ذلك القرن الذي كثر فيه الاتهام الديني وخمدت جذوة العصبية العربية ، وسرى الضعف في جسم الدولة وقضى على كل ما يدعو إلى الحرية في الفكر او الخروج على القديم

على هذا فحرية ابن فارس كانت محدودة — ويجب ان تكون محدودة — ولا بد له من أن يزيد في تحديدها وتقييدها خصوصاً في الدينيات — ولو كان في هذه الدينيات ما فيها من خرافات واكاذيب لم يأت بها الدين ولم يؤيدها الشرع — لأن للرجل من بيئته وتلاميذه وحذره من سلطانه ما يضطره إلى ذلك . غير ان هذا واضاف هذا لا يبرئه ، ولا يجعلنا نتهاون في مؤاخذته ، وان كنا نؤمن بأن حريته هذه كانت تعد اكبر حرية في عصره ، ولكن لن تكون هذه المؤاخذة شديدة وقاسية كمؤاخذتنا للدكتور طه حسين مثلاً في حذفه ما حذف من كتابه « في الشعر الجاهلي » لأن عصر الدكتور غير عصر ابن فارس ولأن للدكتور من انصاره ومريديه ما يشجعهُ على الحرية في البحث ، ولان من واجب الباحث الحرّ ان يكون عند رأيه الذي يعتقده ولو كان في ذلك ما فيه من محنة هي في الحقيقة مهر الخلود ، وبلاء لم يخرج عن كونه ثمناً قليلاً لعز الامة ومجدها ؟

عبد القادر عاشور